

نهر النيل

في الأساطير العربية

د. قاسم عبده قاسم

النيل أكثر أنهار الدنيا فضلا على الناس والأرض التي ينساب فيها • وفضل النهر الخالد على مصر وساكنيها لا يدانيه فضل نهر غيره على الأرض والناس • فالتربة الزراعية المصرية ، التي اشتهرت بخصوبتها ، منقولة كلها ، أو جلها ، من فوق جبال الحبشة البركانية بفضل تراكمات الطمي التي كان فيضان النيل السنوي ينقلها عبر سنوات طوال امتدت الى الأغوار السحيقة للزمن القديم • وبعبارة أخرى ، فإن وادي النيل ، في شطره المصري ، (من وادي حلفا جنوبا حتى البحر المتوسط شمالا) عبارة عن تكوين رسوبي من الطمي الذي حملته مياه نهر النيل من فوق جبال الحبشة لتلقيها في الرتن الشمالي الشرقي من قارة أفريقيا ، مكونة أرض الكنانة التي شهدت مولد حضارة من أعرق حضارات الانسان في رحلته ، التي لم تتم بعد ، عبر الزمان •

ومنذ أيام موغلة في القدم ، كان واضحا لساكني مصر ، ومن خالطوهم أو جاوروهم ، أن هذه الحضارة المبكرة في النضوج والرقى ازدهرت بفضل نهر النيل ، لا سيما في تلك الأزمنة التي كان الانسان فيها ما يزال واقعا تحت رحمة الطبيعة • فلا غرو ، اذن ، أن يصبح نهر النيل محط اهتمام المصريين ، وغيرهم ، ممن سكنوا أرض الكنانة ، أو حكموها ، منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا •

فقد بدأت محاولات استكشاف النهر منذ أن نجح المصري القديم في استئناس النبات ، وأخذ يتحول صوب الزراعة ، نشاطه الحضاري الأول والمستمر • كذلك بدأت في تلك المرحلة المبكرة محاولات تطويع النهر الكبير لارادة الانسان المصري ، ونشأت في تلك المرحلة المبكرة أيضا المسألة الجغرافية المشهورة « مسألة النيل » ، أو « سر النيل » (١) • واستمرت محاولات استكشاف نهر النيل في خط مواز لتلك المحاولات التي استهدفت تطويعه • فمن رحلات المصريين القدماء ، مرورا باليونان القدماء (وأشهرهم

(١) محمد عوض محمد ، نهر النيل (الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٩٦٣) ، ص ٣ •

والأساطير ، فضلا عن كتب التاريخ والجغرافيا
والرحلات ، والشعر والنثر ، والأدب الشعبي .

وهذه الدراسة تحاول استخلاص صورة نهر
النيل من غياهب الأساطير التي وردت في كتب
المؤرخين والجغرافيين العرب ، سواء ما يتعلق منها
بالتصور الشعبي المأثور عن منطقة منابع النيل ،
أو القصص الديني الذي ينسب إلى النهر فضائل
سماوية ويجعله من أنهار الجنة ، أو القصص
الخرافية عن الكائنات العجيبة التي تعيش في
مياهه والتي يترتب على ظهورها بعض الأمور
المفزعة .

★ ★ ★

وفيما يتعلق بالأساطير العربية التي تناولت
نهر النيل في مجراه الأعلى وفي منطقة منابع
يستمرعى النظر أن هذه الأساطير قد وردت في
كتب الجغرافيا أو الكتب التي تحدثت عن فضائل
مصر . وتتفق هذه الكتب جميعا في أنها تنقل
المأثور والمتواتر من الأساطير عن منطقة منابع نهر
النيل ، ولكن وصفهم لمجرى النهر من منطقة
الجنادل ، جنوب أسوان ، حتى مصبه في البحر
المتوسط تتسم بالدقة ، لأنهم شاهدوا النهر في
هذه المنطقة وعايينوا مجراه . ونظرا لأن مجرى
النيل في أعاليه كان عقبة كؤودا في وجه من
حاول تتبع مجرى النهر الأعلى حتى منطقة
المنابع (٣) فقد تصورت الأساطير والخرافات التي
أوردها كتاب ذلك العصر منطقة منابع أرضا
خيالية تنبت فيها قضبان الذهب والفضة والنحاس
والحديد ، كما يجرى فيها بحر من الزفت تنبعث
منه الروائح الكريهة التي تقضى على كل من يحاول
الاقتراب من المنطقة التي تصورها أنها تعج بأحجار
مغنطيسية تجتذب كل من ينظر إليها وتقضى
عليه . هذا الموقف الوجداني يعكس ، بطبيعة
الحال ، مدى الجهل بالطبيعة الجغرافية لمنطقة منابع
نهر النيل ، ولكنه في الوقت نفسه يكشف عن
مدى الرهبة والخوف الكامنين في أعماق اللا شعور
تجاه النهر الذي عليه قوام الحياة في مصر . ولما

بطليموس الجغرافي) ، ثم العرب بعد الفتح
الاسلامي لأرض النيل ، تتابعت المحاولات
لاستكشاف النيل ومنابعه ، كما وضعت
النظريات والاجتهادات التي تشوبها الخرافات
أحيانا كثيرة ، حتى جاءت اللحظة الحاسمة في
العصر الحديث ، إذ تعاقب المستكشفون منذ عصر
محمد علي حتى بداية القرن الحالى . وأميط ذلك
اللثام الذي كان يحجب النهر في مجراه الأعلى ،
ومنطقة منابع ، وانكشف « سر النيل » بعد عناء
استمر عبر القرون والأجيال (٢) .

بيد أن هذه الملامح الجغرافية ليست كل القصة
فيما يتعلق بالنهر الخالد . فمن بديهيات الوجود
المصرى أن هذه الواحة الفيضية الكائنة على أبواب
أفريقيا الشمالية الشرقية وجدت بفضل النيل ،
وما زالت بفضلها . تسعدنا خيرات ، وتزعجها
نزواته ، إذا فاض فأغرق أو إذا غاض فأعطش .
ومن ثم قامت على ضفاف النهر أم الحضارات
وقوامها الزراعة . وانكب هؤلاء الزراع من أبناء
الكنانة يشيدون حضارتهم التي تشهد على
عظمتها تلك الآثار المادية واللامادية التي
خلفوها في عالم اليوم . وقامت حول النهر
الحالد ومحاولات تطويعه حياة شعب بأكمله .

ولم يكن ممكنا لنهر هذا شأنه ألا يحفر لنفسه
مكانة في الوجدان المصرى أعماق من المجرى الذى
حفره لنفسه في الأرض المصرية . وعبر الوجدان
والعقل المصرى عن حبه وامتدانه لنهر النيل في
صياغات كثيرة ، وعلى مستويات متنوعة ،
فالبسوه ثوب القداسة بحيث كان النيل هو
« الاله » فى ديانة المصريين القدماء ، ثم صار
« النهر المؤمن » ، وهو من « أنهار الجنة » فى عصر
التوحيد .

وقد عكست أدبيات المصريين قبل الاسلام مدى
احتفائهم بالنيل ، كما أن الأدبيات العربية المصرية
بعد الاسلام تشي بأن مكانة النهر الخالد كانت
عظيمة فى وجدان الناس ، فقد تناولوه فى
الحديث النبوى ، والقصص الدينى والخرافات

(٢) محمد عوض محمد ، نهر النيل ، ص ٨ - ص ٢٢ .

(٣) محمد عوض محمد ، المرجع السابق ، ص ٣ - ص ٢٢ . والجدير بالذكر أنه قد تم استكشاف هذه المنطقة تماما فى
آخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

كان المصريون ما يزالون تحت رحمة النهر الكبير ،
ولم يتمكنوا من تطويره وضبط مياهه (٤) ، فانهم
ظلوا يخشونه ويتربصون مواسم فيضانه بمزيج
من القلق والرغبة والأمل . وفى تصورى أن هذا
الموقف العقلى والوجدانى قد انعكس فى أساطيرهم
عن نهر النيل ومنطقة منابعه .

ويتفق معظم الجغرافيين والمؤرخين الذين كتبوا
عن نهر النيل ، منذ عبد الرحمن بن عبد الحكم ،
حتى السيوطى ورفاقه من كتاب عصر سلاطين
المماليك ، على أن النهر ينبع من جبال القمر خلف
خط الاستواء من عيون فى الأرض تجتمع فى
عشرة روافد ، تجتمع كل خمسة منها لكى تصب
فى بحيرة ، ثم تخرج ستة أنهار من البحيرتين
لتجتمع مرة أخرى فى بحيرة واحدة حيث يخرج
نهر النيل (٥) . ومن المهم أن نلاحظ أن كلام
أولئك الجغرافيين والكتاب عن منطقة منابع النيل
اعتمدت بصفة أساسية على النقل من القدماء ،
ولم تكن معلوماتهم أكثر من مجرد ترديد لأقوال
بطليموس الجغرافى وغيره ، كما أنهم ، من ناحية
أخرى ، خلطوها بكثير من التصورات الشائعة عن
تلك المنطقة .

بيد أن هذه الكتابات التى ذكرت أن النيل
يخرج من جبل القمر ، تذكر أيضا أن مجرى نهر
النيل كان من عمل البشر اذ يذكر المؤرخ تقى
الدين المقرئى ما نصه « جبل القمر وينصب منه
النيل . وبه أحجار براقية كالفضة تتلألأ تسمى
ضحكة الباهت ، كل من نظرها ضحك والتصق
بها حتى يموت ، ويسمى مغناطيس الناس .
ويتشعب منه شعب يسمى أسيفى ، أهله
كالوحوش ، ثم ينفرج منه فرجة ، ويمر منه شعب

الى نهاية المغرب فى البحر المحيط يسمى جبل
وحشية ، به سباع لها قرون طوال لا تطاق .

« وينعطف دون تلك الفرجة من جبل قاف
شعاب ، منها شعبتان الى خط الاستواء يكتنفان
مجرى النيل من الشرق والغرب . ومن جبل
القمر يخرج نهر النيل وقد كان يتبدد على وجه
الأرض ، فلما قدم نقراوس الجبار بن مصر ايم الأول
ابن مراكابيل بن دوابيل بن عرباب بن آدم عليه
السلام الى أرض مصر ومعه عدة من بنى عرباب
واستوطنوها ، وبنوا بها مدينة أمسوس وغيرها
من المدائن ، حفروا النيل حتى أجروا ماءه
اليهم » (٦) .

**هكذا تصورت الأسطورة أن نهر النيل تم
حفره بأيدي البشر ، وتمضى الأسطورة التى
أوردها المقرئى وغيره لتقول عن نهر النيل :**

« ولم يكن قبل ذلك معتدل الجرى ، بل كان
ينبطح ويتفرق فى الأرض ، حتى وجه الى النوبة
الملك نقراوس فهندسوه وساقوا منه أنهارا الى
مواضع كثيرة من مدنهم التى بنوها ، وساقوا
منه نهرا الى مدينة أمسوس . ثم لما خربت أرض
مصر بالطوفان - وكانت أيام البودشير بن قفط
بن مصر بن بيصر ابن حام بن نوح عليه السلام
عدل جانبى النيل تعديلا ثانيا بعدما أتلغه الطوفان

.....

« ويقال انه أرسل هرمس الكاهن المصرى الى
جبل القمر الذى يخرج منه النيل من تحته ، حتى
عمل هناك التماثيل النحاس ، وعدل البطيخة التى
ينصب فيها ماء النيل .

« ويقال انه الذى عدل جانبى النيل ، وقد كان
يفيض ، وربما انقطع فى مواضع .

(٤) لم يحدث أن نجح المصريون فى التحكم فى مياه نهر النيل ، وتأمين أنفسهم وزراعتهم ضد الغرق أو العطش قبل
اتمام بناء السد العالى وتخزين قدر كبير من المياه فى « بحيرة ناصر » خلف السد العالى .

(٥) شهاب الدين أحمد بن محمد المنوفى ، الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد (مخطوط بدار الكتب المصرية ، ٦٦
جغرافيا) ، ورقة ٤ - ٥ ، جلال الدين السيوطى ، كوكب الروضة (مخطوط بدار الكتب المصرية - تيمور ٥٥٤ تاريخ) ورقة
٥٤ - ٥٧ . والجدير بالذكر أن السيوطى أورد خريطة للنهر النيل من منبعه الى مصبه للتصور الذى أشرنا اليه فى المتن ، انظر
أيضا مقدمة ابن خلدون ص ٤٥ - ص ٤٦ ، القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ج ٣ ، ص ٢٩٠ - ص ٢٩١ .

(٦) تقى الدين المقرئى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (طبعة بولاق ٢٧٠ هجرية) ، ج ١ ، ص ٥٠ - ص ٥١ .

« وهذا القصر الذى فيه تماثيل النحاس يشتمل على خمس وثمانين صورة جعلها هرمس جامعة لما يخرج من ماء النيل بمعاقد ، ومصاب مدورة ، وقنوات يجرى فيها الماء وينصب اليها اذا خرج من تحت جبل القمر ، حتى يدخل من تلك الصور ويخرج من حلوقها . وجعل لها قياسا معلوما بمقاطع وأذرع مقدرة ، وجعل ما يخرج من هذه الصور من الماء ينصب الى الأنهار ، ثم يصير الى بطيحتين ، ويخرج منهما حتى ينتهى الى البحيرة الجامعة للماء الذى يخرج من تحت الجبل » (٧) .

وثمة رواية أخرى لهذه الأسطورة تقول ان الشياطين قد حملت « هرمس » الى جبل القمر ، فرأى كيفية خروج نهر النيل من ذلك الجبل . وبنى هناك قصرا به خمسة وثمانون تمثالا من النحاس تتحكم فى مخارج مياه النيل وفى مقدار هذه المياه (٨) . وهناك أسطورة أخرى تناقلتها المصادر العربية التى حاولت البحث عن منطقة النيل ومنطقة مجراه الأعلى ، وهى خليط من المعلومات الجغرافية والخرافات ، فقد نقل « النويرى » صاحب كتاب نهاية الأرب عن الأدريسى الجغرافى العربى الشهير (ت ٥٦٠ هـ) ، وصاحب « نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق » أن اسم البطيحة الكبيرة (البحيرة) التى يخرج منها النيل « كورى » منسوبة الى طائفة من السودان « ... يسكن حولها متوحشون ، يأكلون من يقع اليهم من الناس فاذا خرج منها النيل ، يشق بلاد كورى ثم بلاد ننه ، وهم طائفة من السودان بن كانم والنوبة ... » (٩) ويعتقد بعض الجغرافيين العرب أن النيل يغوص تحت الرمال ويختفى فى المنطقة الواقعة ما بين بلاد كانم وبلاد النوبة ، ولا يظهر مرة أخرى سوى عند بلاد النوبة (١٠) .

ومن الواضح أن الأساطير العربية التى تتحدث عن منطقة منابع النيل تقدم لنا تصورا خياليا عن كيفية خروج منابع النهر من تحت جبل القمر ، ولكن هذه الأساطير لا تكتفى بذلك ، وانما تتحدث عن تحكم البشر من ملوك مصر القدامى فى مجرى النيل فى منطقة منابع . فقد رأينا كيف جرى الحديث عن أن الذين ملكوا مصر من نسل نوح عليه السلام قد حفروا مجرى النيل ، ورتبوا نوعا من السدود أو القناطر التى اتخذت شكل التماثيل ، والتى يمكن بواسطتها التحكم فى مقدار المياه ، كما تتحدث هذه الأساطير عن أعمال جبارة جرت بعد الطوفان لاعادة صيانة ضفتى نهر النيل .

ويخطر على الذهن أن تكون هذه التصورات الأسطورية عن تدخل ملوك مصر الأولين نابغة من انبهار الجغرافيين والمؤرخين الذين أوردوها بضخامة الآثار المادية التى خلفت عن عصر الفراعنة ، والتى تمثلت فى المعابد الشاهقة والأهرامات ، وتمثال أبى الهول ... وغيرها من ناحية ، كما أنه يحتمل أن تكون هذه التصورات نتاجا للقصاص الأسطورية التى تداولها الناس فى مصر حول تاريخ مصر القديم من ناحية أخرى . وعلى أية حال ، فإن هذه التصورات الخيالية لمنطقة منابع النيل ومجراه الأعلى تظل دليلا على أن الانسان يرفع النقص عن معلوماته دائما بالأسطورة التى تقوم بهذا الدور الثقافى الاجتماعى فى حياة كل المجتمعات البشرية .

وهناك تصور آخر لمنطقة منابع نهر النيل ساقه الجغرافيون والمؤرخون العرب ، فقد زعم البعض بأن نهر النيل ونهر السمند ينبعان من أصل واحد ودليلهم فى ذلك اتفاق النهرين فى

(٧) المقرئى ، الحطط ، ج ١ ، ص ٥١ . وهرمس هذا هو الذى تنسب اليه الأساطير العربية بناء الأهرام وتصفه

بالحكمة والعلم .

(٨) سراج الدين عمر بن الوردى ، خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، (القاهرة ١٢٨٠ هـ) ص ١٥٤ - ص ١٥٥ .

(٩) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب (طبعة دار الكتب المصرية) ، ج ١

ص ٢٦٢ .

(١٠) المنوفى ، الفيض المديد فى النيل السعيد ، ورقة ٥ - ٦ .

المصريين بلداً أحبوه وعشقوه ، ولم يرضوا عنه
بديلاً طوال تاريخهم الطويل . كما أن هذه
المحاولات الأسطورية لاحاق نهر النيل بالجنة نوع
من التشريف والتكريم الذى أسبغته العقلية
الشعبية على النهر الذى ارتبطت به حياتهم
ارتباطاً كاملاً سواء فى الزراعة والتجارة
والصناعة ، أو فى المواصلات ، أو فى الفن
والأدب .

ولما كان المصريون قد جعلوا من النهر لها قبل
اعتناقهم الإسلام والمسيحية ، فانهم ظلوا يحتفظون
لهذا النهر بمكانة سامية فى وجدانهم بحيث
حاولت أساطيرهم أن تجعله من أنهار الجنة ، وهى
محاولة لم تقف عند حد الاستعانة بالتصور
الأسطورى ، بل تعدته الى القصص الدينى كما
سنرى .

هذه الأساطير التى أوردناها ليست هى كل
الأساطير التى تتعلق بمنطقة منابع النيل ، إذ
تحفل المصادر العربية التى اهتمت بهذا الموضوع
بأساطير أخرى تتحدث عن منطقة منابع النيل
ومجرى الأعلى .

تقول أسطورة (١٥) ان « الوليد بن دوع
العليقي » قد خرج فى جيش كثيف يتنقل فى
البلدان ويقهر ملوكها ليسكن ما يوافقه منها ،
فلما صار الى الشام انتهى اليه خبر مصر وعظم
قدرها ، وأن أمرها قد صار الى النساء وباد
ملوكها ، فوجه غلاماً له يقال له عون الى مصر ،
وسار اليها بعده واستباح أهلها ، وأخذ الأموال
وقتل جماعة من كهنتها .

« ثم سنج له أن يخرج ليقف على مصب النيل
فيعرف ما بحافتيه من الأمم فأقام ثلاث سنين
يستعد لخروجه ، وخرج فى جيش عظيم ، فلم
يمر بأمة الا أبادها ، ومر على أمم السودان

الزيادة ، ووجود التمساح فيهما (١١) . وربما
يكون السبب وراء هذا التصور هو أيضاً الذى
جعل البعض ينسبون نهر النيل الى أنهار الجنة
الأرضية التى كان مكانها يقع فى أقصى الشرق ،
وعلى الناحية الأخرى من بحر الظلمات ، وفتما
للتصورات الخيالية الشائعة آنذاك (١٢) وقد ذكر
أحدهم ما نصه : « . . . وهو من الجنة تحت
سدرة المنتهى ، ويوجد فيه من ورقها ، فيبتلعه
البطلى ويرعاه ، ويحب أكله . . . ومبدأ ظهوره
للمناس من أعين تخرج من جبل القمر المسمى بذلك
لشدة ضياء القمر هناك . . . قيل من أسفله وقيل
من أعلاه ، له دوى لا يكاد يسمعه أحد من شدته .
وأضيف الى القمر لظهور تأثيره فيه عند زيادته
ونقصانه بسبب النور والظلمة ، وهو خلف خط
الاستواء » (١٣) .

هذا التصور الأسطورى لخروج نهر النيل من
الجنة يفترض أن جزءاً من مجرى هذا النهر - وهو
الجزء الذى يمتد من منابعه الأولى فى الجنة حتى
منابعه الثانية عند جبل القمر - يختفى عن
أنظار البشر ، ولا يظهر لهم سوى فى إفريقيا عند
خط الاستواء . وقد تحدث آخرون عن أن أنهاراً
أربعة تخرج من أصل واحد عند الجنة الأرضية ،
فقد أورد « ابن ظهيرة » ما نصه : « . . . وقد
ذكر الواصفون له فى كلام طويل أن الأنهار
الأربعة التى هى سيحون وجيحون والفرات والنيل
تخرج من أصل واحد من قبة فى أرض الذهب
التى من وراء البحر المظلم ، وأن تلك الأرض
من أرض الجنة ، وأن تلك القبة من زبرجد ،
وأنها قبل أن تسلك البحر المظلم أحلى من العسل
وأطيب رائحة من الكافور » (١٤) .

والرأى عندى أن هذا التصور الأسطورى للنهر
ونسبته الى أنهار الجنة نوع من تعبير وجدانى
شعبى عن الامتنان والحب للنيل الذى وهب

(١١) جلال الدين السيوطى ، الكلام على النيل (مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٣٨١ جغرافيا) ورقة ٢٦ .

(١٢) Encycloepadia of Islam, Art «Al Nil». (١٢)

(١٣) المحلى ، مبدأ النيل على التحرير (مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٣٨٠ جغرافيا) ورقة ٢ - ورقة ٣ .

(١٤) ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة (تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس ، دار الكتب المصرية

١٩٦٩ م) ، ص ١٦٣ .

(١٥) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٥١ - ص ٥٢ المنوفى ، الفيض الجديد ، ورقة ٩ .

وجاوزهم ، و مر على أرض الذهب فرأى فيها
قضبانا نابثة من ذهب .

« ولم يزل يسير حتى بلغ البطيحة التي
ينصب ماء النيل فيها من الأنهار التي تخرج من
تحت جبل القمر ، وسار حتى بلغ هيكل الشمس
وتجاوزه حتى بلغ جبل القمر ، وإنما سمي جبل
القمر لأن القمر لا يطلع عليه لأنه خارج من تحت
خط الاستواء

ونظر الى النيل يخرج من تحته فيمر في طرائق
وأنهار دقاق حتى ينتهى الى حظيرتين ، ثم يخرج
منهما في نهرين حتى ينتهى الى حظيرة أخرى .
فاذا جاوز خط الاستواء مدته عين تخرج من ناحية
نهر مهران بالهند ، وتلك العين تخرج من تحت
جبل القمر الى ذلك الوجه .

« ويقال ان نهر مهران مثل النيل يزيد
وينقص ، وفيه التماسيح والأسماك التي مثل
أسماك النيل . ووجد الوليد بن دوعم القصر
الذى فيه التماثيل النحاس التي عملها هرمس
الأول في وقت البودشير بن قفطريم بن قبطيم بن
مصر ايم . »

هذه الرواية الأسطورية تحاول أن تؤكد ، في
شكل قصصى ، ذلك التصور الخيالى الذى تناقله
الجغرافيون العرب عن بطليموس الجغرافى لمنطقة
منابع نهر النيل . وقد أحسن العمرى حين قال :
ان الأقوال فى أول مجرى النيل كثيرة ، والشائع
أن أحدا ما وقف على أوله بالمشاهدة ، وجعل كل
واحد منهم سببا يبرر به عدم مشاهدة منطقة
المنابع (١٦) .

وتقول أسطورة أخرى (١٧) ان رجلا من بنى
العيص . . . يقال له حايده بن أبى شالوم بن
العيص بن اسحق بن ابراهيم عليه السلام ، وأنه
خرج هاربا من ملك من ملوكهم حتى دخل أرض

مصر ، فأقام بها سنين . فلما رأى أعاجيب
نيلها ، وما يأتى به ، نذر لله تعالى ألا يفارق
ساحله حتى يبلغ منتهاه ، ومن حيث يخرج ، أو
يموت قبل ذلك . فسار عليه ثلاثين سنة فى
ال عمران ، وثلاثين سنة أخرى فى الخراب حتى
النهى الى بحر أخضر ، فنظر الى النيل يشق
دقبلا ، فصعد على البحر فاذا رجل قائم يصلى
تحت شجرة من تفاح . فلما رآه استأنس به
وسلم عليه ، فسأله الرجل صاحب
الشجرة وقال له : من أنت ؟ قال : انى حايده
ابن أبى شالوم بن العيص بن اسحق
ابن ابراهيم عليه السلام ، فمن أنت ؟
قال : عمران بن فلان بن العيص . قال : فما الذى
جاء بك ها هنا يا عمران ؟ قال : جاء بى الذى جاء
بك حتى انتهيت الى هذا الموضع ، فأوحى الله
تعالى الى أن أقف هنا حتى يأتينى أمره . فقال له
حايده : أخبرنى يا عمران ما انتهى اليك من أمر
هذا النيل ، وهل بلغك فى الكتب أن أحدا من
بنى آدم يبلغه ؟ قال له عمران : نعم ، قد بلغنى
أن رجلا من بنى العيص يبلغه ، ولا أظنه غيرك
يا حايده ، قال له : يا عمران فأخبرنى كيف
الطريق اليه ؟ فقال له عمران : لست أخبرك
بشئ الا أن تجعل لى ما أسألك . قال : وما ذاك
يا عمران ؟ قال : اذا رجعت الى وأنا حى أقمت
عندى حتى يوحى الله الى بأمره أو يتوفانى الله
فتدفننى . قال : ذلك لك على . فقال له : سر
كما أنت على هذا البحر فانه ستأتى دابة ترى
أخرها ولا ترى أولها ، فلا يهولنك أمرها ،
اركبها فانها دابة معادية للشمس ، اذا طاعت
أهوت اليها لتلتقمها حتى تحول بينها وبين
حجبها ، واذا غربت أهوت اليها لتلتقمها ، فتذهب
بك الى جانب البحر ، فسر عليها حتى تنتهى الى
النيل ، فسر عليه ، فانك ستبلغ أرضا من حديد
جبالها وأشجارها وسهولها من حديد ، فان أنت
جزتها وقعت فى أرض من نحاس ، جبالها

(١٦) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (الجزء الأول تحقيق أحمد زكى ، القاهرة ١٩٤٢) ، ص

٦٨ - ص ٧١ .

(١٧) ابن طهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٧١ - ص ١٧٤ وقد أوردها المقرئى فى خطه رواية لهذه الاسطورة بقدر من

الاختصار ، انظر : الخطط ، ج ١ ، ص ٥٢ . كذلك أوردها كل من السيوطى ، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة (تحقيق

محمد أبو الفضل ابراهيم) ج ٢ ، ص ٣٤٣ - ص ٣٤٦ المنوفى : الفيض المديد ، ورقة ١٠ - ١١ .

وأشجارها وسهولها من نحاس ، فإن أنت جزتها وقعت فى أرض من فضة جبالها وأشجارها وسهولها من فضة ، فإن أنت جزتها وقعت فى أرض من ذهب جبالها وأشجارها وسهولها من ذهب ، فيها ينتهى اليك علم النيل .

« فسار حتى انتهى الى أرض الذهب ، فاذا فيها قبة من ذهب ، لها أربعة أبواب فنظر الى ما ينحدر من فوق ذلك السور حتى يستقر فى القبة ، ثم ينصرف فى الأبواب الأربعة . فأما ثلاثة فتغيب فى الأرض ، وأما واحد فيسير على وجه الأرض . قال حايد : فيشق على وجه الأرض وهو النيل . فشرب منه واستراح ، وأهوى الى السور ليصعد ، فأتاه ملك فقال له : يا حايد ، قف مكانك ، فقد انتهى اليك علم هذا النيل ، وهذه الجنة والماء ينزل من الجنة . فقال : أريد أن أنظر ما فى الجنة . فقال له : انك لن تستطيع دخولها اليوم يا حايد ، قال : فأى شئ هذا الذى أرى ؟ فقال : هذا الفلك الذى تدور فيه الشمس والقمر وهو شبه الرحى ، قال انى أريد أن أركبه ، فأدور فيه (فقال بعض العلماء انه ركبه حتى دار الدنيا ، وقال بعضهم لم يركبه) فقال له : يا حايد انه سيأتيك من الجنة رزق فلا تؤثر عليه شيئا من الدنيا ، فانه لا ينبغى لشئ من الجنة أن يؤثر عليه شئ من الدنيا ، فان فعلت بقى معك ما بقيت .

« فبينما هو كذلك واقف اذ نزل عنقود من عنب فيه ثلاثة أصناف : صنف لونه كالزبرجد الأخضر ، وصنف لونه كالياقوت الأحمر ، وصنف لونه كاللؤلؤ الأبيض . ثم قال : يا حايد أما أن هذا من حصرم الجنة وليس من طيب عنبها فارجع يا حايد فقد أنتهى اليك علم هذا النيل . فقال : هذه الثلاثة التى تغيب فى الأرض ما هى ؟ قال : أحدها الفرات والآخر دجلة ، والآخر جيحان ، فارجع .

« فرجع حتى أنتهى الى الدابة التى ركبها ، فركبها ، فلما أهوت الشمس لتغرب قذفت به

من جانب البحر ، فأقبل حتى أتى عمران ، فوجده ميتا فدفنه وأقام على قبره ثلاثة أيام . فأقبل عليه شيخ مشبه بالناس ، أغر من السجود (١٨) ، فسلم عليه وقال : يا حايد ، ما انتهى اليك من علم هذا النيل ؟ فأخبره ، فقال له : هكذا نجده فى الكتب . ثم أخرج بعض التفاح ، وقال فى عينيه : ألا تأكل منه ؟ قال معى رزق قد أعطيته من الجنة ، ونهيت ألا أؤثر عليه شيئا من الدنيا . قال : صدقت يا حايد ، ولا ينبغى لشئ من الجنة أن يؤثر عليه الا بشئ من الجنة ، وهل رأيت فى الدنيا مثل هذا التفاح ؟ انما أنبت لعمران فى الأرض ، وليس فى الدنيا وانما هذه الشجرة من الجنة ، أخرجها الله تعالى لعمران يأكل منها تفاحة ، فعضها ، فلما عضها عض يده . قال له : أتعرفه ؟ (يقصد التفاح) هو الذى أخرج أباك من الجنة . أما انك لو سلمت هذا الذى كان معك لأكل منه أهل الدنيا قبل أن ينفذ . ثم أقبل حايد حتى دخل مصر ، فأخبرهم بهذا الخبر . ثم مات حايد بأرض مصر .

هذه القصة الأسطورية تعكس التصور الشعبى

لمنطقة منابع النيل التى جعلوها جزءا من الجنة . والحوار المثير بين أبطال هذه القصة يوضح لنا أبعاد الاحترام والحب الذى حمله الوجدان الشعبى لنهر النيل قوام الحياة المصرية ومصدر استمرارها . ومن المهم أن نشير الى أن هذا التراث الاسطورى المتعلق بنهر النيل لم يكن وليد الفترة التى اتخذت فيها مصر ثقافتها العربية واعتمدت الدين الاسلامى ، ولكنه استمرار لموروث شعبى تناقلته الأجيال عبر تاريخ مصر . وهذا الموروث الشعبى يخلط بين أساطير مصرية قديمة ، وتصورات شائعة عن الجنة وثمارها ، وبين مفهوم المعرفة المحرمة التى تربط بين التفاحة وخروج آدم من الجنة . وهكذا ، فإن التصور الشعبى عن منطقة منابع نهر النيل ، كما اتضح من نصوص الأساطير العربية ، كان فى حقيقته نتاجا لحيال المصريين ووجدانهم بسبب العجز عن معرفة الحقائق الجغرافية حول منطقة أعالي نهر النيل

ومنابعه . ومن ناحية أخرى ، كانت هذه الأساطير نوعا من الموروث الشعبي المصرى حول النيل ، والذي ظل موضوعا للتداول الشفوى والمكتوب طوال عصور التاريخ المصرى ، وان جرت عليه بعض التحويرات والتعديلات بحيث يتوافق مع التطورات الاجتماعية والثقافية ، وبحيث يلبي الحاجة الاجتماعية والثقافية لأبناء هذا المجتمع . وقد حرص الذين كتبوا عن « فضائل مصر » ، فى المصادر التاريخية والجغرافية العربية ، على أن يجمعوا هذا التراث الشعبى ويدونوه فى كتبهم باعتباره نوعا من الحقائق المسلم بها .

وإذا كان المجرى الأعلى لنهر النيل ومنطقة المنابع قد احتل هذه المكانة فى نصوص الأساطير العربية ، فإن فيضان النهر السنوى قد أثار اهتمام كل من كتبوا عن « فضائل مصر » وتاريخها وجغرافيتها من المؤلفين العرب . وكان الفيضان وأسبابه مرتعا لخيال هؤلاء وأولئك جميعا ومجالا لتخمينهم . وقد اعتمدوا فى هذا المجال على ما نقلوه من كتب القدماء ، وما جمعه من الموروث الشعبى المتداول . بيد أن بعضهم اقترب من الحقيقة ، أو كاد . فقد ذكر بعضهم أن سبب الزيادة نزول الأمطار فوق جبال الحبشة « » . فبدأت مددها إلى مصر صيفا « . . . » ، ولكن البعض تصور أن رياح الشمال تهب فترتفع مياه البحر المتوسط لتتجز مياه النيل حتى يفيض ويروى البلاد ، ثم تهب رياح الجنوب لتجعل مياه النيل تصب فى البحر المتوسط (١٩) كما ذكر البعض أن زيادة نهر النيل زمن الفيضان من عيون على شاطئيه « » رآها من سافر ، ولحق بأعاليه « . . . » (٢٠) كما أن كتابات أولئك المؤلفين حاولت اكساب النيل طابع القدسية فى هذا الصدد أيضا ، فقد ذكر بعضهم أن الله سبحانه وتعالى يأمر كل الأنهار والعيون أن تمتد نهر النيل بمياهها وقت الفيضان ، فإذا اكتفى الناس برى

أراضيهم وزراعاتهم ، أمر الله النيل أن يعود كما كان (٢١) وربما يكون هذا التصور قد رسخ فى أذهان الناس آنذاك بسبب ما لاحظوه من أن النيل كان يزيد فى فصل الصيف ، أى فى الوقت الذى تنقص فيه مياه سائر الأنهار التى يعرفونها .

وعن محاولات كشف منابع النيل بعد الفتح الاسلامى لمصر ، أورد المؤرخون قصة مؤداها أن بعض الخلفاء أرسل عدة رجال لكشف منابع نهر النيل ، ولما وصلت هذه المجموعة إلى جبل القمر صعد أولهم إلى أعلاه حيث ضحك وصدق ثم مضى ولم يعد . وصعد رجل آخر ففعل مثل الأول ، ثم صعد رجل ثالث وربطه رفاهه بحبل جعلوه معهم حتى لا يمضى مثل سابقيه ، فخرس ومات من ساعته (٢٢) . كما تذكر قصة أخرى أن السلطان « الصالح نجم الدين أيوب » أراد أن يعرف أصل النيل ، ومن أين ينبع ، فأمر بشراء عبيد صغار من الزنوج ، وأمر بأن يتولى رعايتهم وتعليمهم صيادو السمك والتجار حتى يتعلموا صنعة البحر وصيد السمك ، ليكون لهم غذاء فى رحلتهم إلى منطقة منابع نهر النيل ، فإذا مهرؤا فى ذلك يتم صنع مراكب لهم . بحجم صغير لكى يركبوها ويأتوه بخبر النيل . ولكن تلك المحاولة لم يقدر لها النجاح (٢٣) .

هاتان القصتان توضحان مدى الاهتمام الذى استحوذ على المصريين لمعرفة منطقة منابع نهر النيل . وعلى الرغم من الطابع الأسطورى الذى يغلف القصة الأولى ، فإن القصة الثانية يمكن أن تكون قصة صحيحة . لقد ظلت « مسألة النيل » أو « سر النيل » مغلفة أمام الشعب الذى ارتبطت حياته ، وجودا وعدما ، بنهر النيل بسبب الأعراس الكثيفة والغابات الموحشة والحيوانات المفترسة التى حالت دون الكشف الحقيقى لمنطقة

(١٩) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٥٨ ، ابن ظهيرة الفضائل الباهرة ، ص ١٦٤ - ص ١٦٥ ، السيوطى ، الكلام على النيل ، ورقة ٢٤ ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٤٨ .
(٢٠) الكتبى ، مباحج الفكر ، ج ١ ، ورقة ٨٥ ، ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٦٥ ، المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٥٨ .
(٢١) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٩ - ص ٥٠ ، ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٦٩ .
(٢٢) المحلى ، مبدأ النيل على التحرير ، ورقة ٢ - ٣ .
(٢٣) ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٦٤ .

منابع النيل ومجراه الأعلى في ذلك الزمان . وكان طبيعياً أن يلجأ الخيال الشعبي إلى الأسطورة لتعويض هذا النقص في معلوماته عن نهر النيل . لقد رفضت العقلية الشعبية فكرة الاعتراف بالجهل فيما يتعلق بنهر النيل الذي قامت حوله حياة شعب بأكمله . ولأن الوجدان الشعبي في مصر العربية الإسلامية كان ما يزال يحمل أصداء الألوهية والقدسية التي أضفاها المصريون القدماء على نيلهم الحبيب ، فإن الكتابات العربية عن النيل ربطت النهر بالجنة على النحو الذي جعله يحتفظ بمكانته السامية بين أنهار الدنيا .

وإذا كان نهر النيل قد حظى بنصيب موفور في الأساطير العربية ، فإنه احتل مكانة مهمة في القصص الدينية الذي رواه المفسرون وغيرهم . واللافت للنظر أن هناك محاولة ثابتة ومستمرة من جانب المؤرخين والجغرافيين العرب للربط بين نهر النيل والقصص الدينية ، سواء كانت تلك القصص واردة في تفسير القرآن الكريم أو في الأحاديث المنسوبة إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، أو ضمن المأثور عن الصحابة والسلف الصالح .

فقد اهتم الكتاب العرب ببيان أنه لم يرد اسم نهر سوى نهر النيل في القرآن الكريم . فقد جاء ذكره في قوله تعالى « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني أنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين » (٢٤) ويقول المفسرون أن اليم هنا (أي البحر) هو نهر النيل . وفي قوله تعالى حكاية عن فرعون « ... أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي » ، وقد فسر بعض المفسرين هذه الآية الكريمة بأن أرض مصر أيام

فرعون كانت عامرة بالقناطر والجسور بتدبير وتقدير ، حتى أن الماء يجري تحت منازلهم وأقبيتها فيحبسونه كيف شاؤوا ، ويطلقونه كيف شاؤوا . كذلك ورد ذكر نهر النيل في قوله تعالى « فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم » (٢٥) وتفسير هذه الآية في رأى المفسرين أن الجنان كانت بأرض مصر بحافتي النيل من أوله إلى آخره في الجانبين جميعاً ما بين أسوان إلى رشيد (٢٦) . وقد فسر البعض قوله تعالى أخباراً عن فرعون الذي حدد لموسى عليه السلام موعداً للاجتماع . « قال موعدكم يوم الزينة ، وأن يحشر الناس ضحى » (٢٧) بأنه يعنى الاحتفال بوفاء النيل وكسر الخليج ، إذ جرت عادة المصريين على الاجتماع للاحتفال بوفاء النهر في مثل هذا الوقت من النهار (٢٨) .

كذلك امتلأت المؤلفات المعاصرة بأحاديث كثيرة منسوبة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام تنسب نهر النيل إلى أنهار الجنة ، وتصفى عليه صفة القدسية ، وتخلع عليه صفة الإيمان (٢٩) ومن طبيعة الأمور أن النهر الذي كان لها في عصور الوثنية (حابي) لا يمكن أن يحتفظ بألوهيته في ظل الإسلام دين التوحيد ، ولكن أهمية نهر النيل في حياة البلاد وساكنيها جعلت النهر يحتفظ ببعض من صفات القدسية في وجدانهم وفي آدابهم ، فهو من أنهار الجنة ، وسيد الأنهار ، وهو النهر المؤمن في الأحاديث التي نسبت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام والسلف الصالح . وقد نسب إلى النبي قوله في حديث المعراج « ... ثم رفعت لي سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة . قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه سدرة المنتهى ،

(٢٤) سورة القصص ، آية ٧ .

(٢٥) سورة الشعراء ، آية ٥٧ - ٥٨ .

(٢٦) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٤٠ - ص ٣٤١ ، الكلام على النيل ، ورقة ١٣ ، ١٤ ، كوكب الروضة ،

ورقة ٤٩ .

(٢٧) سورة طه ، آية ٥٩ .

(٢٨) النويري ، نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٢٦٤ ، المقرئ ، الخط ، ج ١ ، ص ٦٠ ، الكتبي ، مباهج الفكر ،

ج ١ ، ورقة ٨٦ .

(٢٩) المجازي ، نيل الرائد في النيل الزائد ، ورقة ٨ ، السيوطي ، الكلام على النيل ، ورقة ١٣ - ١٩ ، المحلى ، مبدأ

النيل ، ورقة ٧ - ٩ .

التي كتبت حول مصر ونيلها • وقد حاول المؤرخون والجغرافيون العرب اضافة صفة القداسة والايمان على النيل ، فقد تصوره يجرى بوحى من الله ويعود بوحى منه سبحانه وتعالى ، وهو فى نظرهم ، وفى كتاباتهم ، سيد الأنهار الذى سخر الله له كل الأنهار لتمده بمائها وقت زيادته • كذلك فان الأدبيات العربية صورت النهر فى صورة النهر المؤمن ، كما جعله البعض نهر الحمر لدى أهل الجنة (٣٣) •

وتروى احدى القصص الدينية أنه لما خلق الله آدم عليه السلام مثل له الدنيا ، مشرقها ومغربها ، وسهولها وجبالها ، وأنهارها وأبحارها ، وبناءها وخرابها ، ومن يسكنها من الأمم ومن يملكها من الملوك ، فلما رأى مصر رأى أرضا سهلة ذات نهر جار مادته من الجنة تنحدر فيه البركة وتمزجه الرحمة فدعا للنيل بالبركة ، ودعا فى أرضه ، وبارك على نيلها وجبلها سبع مرات (٣٤) •

كما تحكى قصة أخرى أن النيل هبط فى زمن فرعون ، وطلب الناس منه أن يجره لهم ، ولكنه ردهم بحجة عدم رضائه عنهم وغضبه عليهم • ولما هددوه باتخاذ اله غيره خر ساجدا لله تعالى ، وألصق خده بالأرض ، وأخذ يتذلل الى الله تعالى أن يجرى النيل ، فأجراه كما لم يجر من قبل • فخرج فرعون الى قومه وقال لهم : انى أجريت لكم النيل فخرجوا له ساجدين • وجاءه جبريل وسأله عن جزاء عبد كان عنده واثنمنه ، ولكن العبد خان الأمانة ، فقال فرعون ان جزاء هذا العبد أن يغرق فى بحر القلزم ، وحصل منه جبريل على كتاب بذلك • فلما كان يوم البحر (أى اليوم الذى غرق فيه فرعون وجنوده فى مياه البحر

واذا أربعة أنهار ، نهران ظاهران ونهران باطنان • قلت ما هذا يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة ، وأما الظاهران فهما النيل والفرات • » (٣٠) •

ونقل المقرئى فى خطه ما جاء فى كتاب غريب الحديث لابن قتيبة فى حديثه عليه الصلاة والسلام : « نهران مؤمنان ، ونهران كافران ، أما المؤمنان فالنيل والفرات وأما الكافران فدجلة ونهر بلخ • وتفسير ذلك ، فى رأيهم ، أن النيل والفرات لأنهما يفيضان على الأرض ، ويستقيان الحث والشجر بلا تعب فى ذلك ولا مؤونة ، وجعل نهر دجلة ونهر بلخ كافرين لأنهما لا يفيضان على الأرض ولا يستقيان الا شيئا قليلا ، وذلك القليل بتعب ومؤونة • فهذان فى الخير والنفع كالمؤمنين وهذان فى قلة الخير والنفع كالكافرين (٣١) • وورد فى الأحاديث المنسوبة الى النبى أيضا أن جبريل عليه السلام نزل بالنيل والفرات على جناحيه • » ٠٠٠٠ فكان النيل على جناحه الأيسر ، والفرات على جناحه الأيمن • وقال بعض الفضلاء ان هذا يدل على أن ماء النيل أخف من ماء الفرات ، لأن الشئ الثقيل من عادته أن يحمل على الجانب الأيمن والخفيف على الجانب الأيسر ، وكون جبريل حمل النيل على جناحه الأيسر دليل خفته • » (٣٢) •

ويضيق بنا المقام عن تتبع كل الأحاديث التى نسبت الى الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الصدد ، ولكن هذه الأحاديث تعكس أمرا مهما يتعلق بموقف الوجدان المصرى من نهر النيل ، وهى مكانة النهر فى العقلية الشعبية وعواطف الناس التى تتعلق بالنهر الخالد • وقد انعكس هذا الموقف الوجدانى الشعبى فى الأدبيات العربية

- (٣٠) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٥٠ ، الكتبى ، مباحج الفكر ، ج ١ ، ورقة ٨٤ ، النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٢٦٣ ، المنوفى ، الفيض المديد ، ورقة ٩ •
- (٣١) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٩ - ص ٥٠ •
- (٣٢) محمد بن أحمد بن الأخوة ، معالم الفربة فى أحكام الحسبة (كمبردج ١٩٣٧ م) ، ص ٢٣٩ - ص ٢٤٠ •
- (٣٣) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٩ ، السيوطى ، كوكب الروضة ، ورقة ٥٠ - ٥١ ، ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٠٧ ، الحجازى ، نيل الرائد ، ورقة ٨ - ٩ ، المنوفى ، الفيض المديد فى النيل السعيد ، ورقة ١٢ •
- (٣٤) السيوطى ، كوكب الروضة ، ص ٥٠ - ص ٥١ •

الأدبيات العربية التي جعلت من مصر ونيلها موضوعا لها •

هذه المكانة السامية للنيل فى الأدبيات العربية
تعكس ، فى رأينا ، الموقف الشعبى من نهر النيل
الذى عاش المصريون بفضلها يشربون مياهه ،
ويروون زروعهم ويسقون حيواناتهم • ومن
البديهي أن نهر النيل سبب الوجود المصرى ، إذ
أن النهر جعل من الممكن وجود ذلك المجتمع
البشرى الكثيف وسط صحراوات شمال شرق
أفريقيا وجنوب غرب آسيا ، وعوض النقص
الصارخ فى كمية الأمطار التى تسقط فوق هذه
الصحراوات بتوفير مصدر دائم للرى • ومن ثم
كانت الحضارة المصرية فى شتى مراحلها حضارة
زراعية نهريّة تحيط بها الصحراء عن شرق وعن
غرب ، ويحدهم البحر المتوسط شمالا ، على حين
كانت أدغال أفريقيا المدارية تمثل حدود وادى
النيل جنوبا • وقد يسر هذا للمصريين قدرا من
الاستقرار والثراء النسبى طوال مراحل تاريخهم
الطويل •

وقد أدرك الوجدان الشعبى هذه الحقائق
وعايشها منذ فجر التاريخ المصرى على نحو ما
تكشفه الأساطير الفرعونية ، وعندما تحولت مصر
الى مجتمع مسلم ديناً ، عربى ثقافة وانتماء ،
تسربت مظاهر تقديس النيل وتبجيله فى أشكال
جديدة توافق ثقافة المجتمع فى طورها العربى
الاسلامى • وهكذا جاءت الأساطير والقصص
الدينى ، والحرافات لتصنع نسيجاً نرى فيه بعض
تفاصيل الموقف الشعبى تجاه النهر الذى قامت
عليه حياة المصريين ونشاطهم الاجتماعى •

حين خرجوا يطاردون موسى وقومه) ، جاء جبريل
بالكتاب وقال لفرعون : خذ هذا ما حكمت به على
نفسك « (٣٥) •

واسهب المؤرخون والجغرافيون وكتاب الفضائل
فى وصف الأسماك والحيوانات المائية التى تعيش
فى نهر النيل ، واعتبروا بعضها من العجائب •
ومن هذه الحيوانات المائية التمساح الذى اعتقدوا
أنه لا يوجد سوى فى نهر النيل ونهر مهران ،
وكان ذلك دليلاً ، فى رأيهم ، على أن النهرين
يخرجان من منبع واحد قرب الجنة الأرضية • كما
تحدثوا فى كتاباتهم عن السقنقور الذى وصفوه
بأنه حيوان مائى يتواجد فى منطقة أسوان
والنوبة ، وهو شبيه بالتمساح ومن نسله إذا
وضعه فى الماء صار تمساحاً ، فإذا اتجه الى البر
صار سقنقوراً • ومن بين أسماك النيل التى ذكرها
أولئك الكتاب سمكة اسمها « الرعادة » تصيب
من يلمسها بالرعشة ولذلك يعمد الصيادون الى
اخراجها من شباكهم فور صيدها •

ومن الكائنات المائية التى دارت حولها خرافاتهم
وأساطيرهم سمكة زعموا أنها تعيش فى نهر
النيل ، وهى شبيهة بانسان ذى لحية طويلة ،
وأطلقوا على تلك السمكة المزعومة اسم « شيخ
البحر » • وتقول الكتابات التى تناولتها انها
سمكة مشؤمة اذا ظهرت فى مكان أعقب ظهورها
القيح ، والموت ، والفتن « وقيل ان دميّاط
ما تنكب حتى يظهر عندها ٠٠٠ » (٣٦) •

هكذا رأينا فى الصفحات السابقة أن مكانة نهر
النيل فى الوجدان المصرى كانت ساهية بالقدر
الذى جعله يحظى بمكانة مهمة فى الأساطير
العربية ، والقصص الدينى ، وغير ذلك من



(٣٥) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٤٠ - ص ٣٤١ •
(٣٦) السيوطى ، كوكب الروضة ، ورقة ٧١ - ٧٤ ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٦٩ - ص ٧٤ ، المنوفى ، الفيض المديد ،
ورقة ١٩ - ٢٤ •